الفصل الخامس

جمعية اليهود والدولة اليهودية

حماية المصالح

هذا الكتيب غير موجه للمحامين، لذا أستطيع على عجالة ـ مثلما أفعل مع أمور أخرى كثيرة ـ أن أوضح نظريتى حول الأساس القانونى للدولة.

غير أنه يتوجب علىّ التأكيد على نظريتى الجديدة التى أعتقد أنها من الممكن أن تصمد حتى فى المناقشات مع خبراء فى علم القانون.

طبقا لرأى روسو الذى يعتبر الآن عتيقًا، فإن الدولة تتكون بموجب عقد اجتماعى؛ يقول روسو: «إن شروط هذا العقد محددة بدقة شديدة طبقًا لطبيعة الاتفاق، وإن أى تغيير بسيط يمكن أن يبطل هذه الشروط. والعاقبة أنه حتى الشروط غير المنصوص عليها متشابهة فى كل مكان، ومقبولة ومُعترف بها . . .».

لم يكن الدحض التاريخى والمنطقى لنظرية روسو أمرًا صعبًا، ولن يكون كذلك الآن، مهما كانت آثاره مخيفة أو بعيدة المدى. ومسألة وجود العقد الاجتماعى المشتمل على «شروط لم ينص عليها صراحة لكنها غير قابلة للتغيير» قبل صياغة الدستور ليست مسألة هامة على الصعيد العملى بالنسبة للدول التى تقوم فى ظل التشكيلات الحكومية الحديثة. وعلى أية حال، فقد ترسخت الآن العلاقة القانونية بين الحكومة والمواطن.

ولكن قبل صياغة الدستور، وأثناء تأسيس دولة جديدة، من المفترض يكون أن لهذه المبادئ أهمية عملية كبيرة. ونحن نرى ونعلم أن الدول ستستمر فى الظهور؛ مستعمرات تنفصل عن الدول الأم، وتنشق دول تابعة عن الدول المهيمنة، وأقاليم جديدة تتشكل فى دول حرة على الفور. وإنه لأمر حقيقى أن الدولة اليهودية يُنظر إليها باعتبارها بناء خاصّا قائمًا على أراضٍ غير محددة. لكن الدولة لا تتأسس بمجموعة قطع من الأراضى، بل بمجموعة من الرِّجال المتحدين تحت سيادة حاكمة.

والشعب هو الفاعل، بينما الأرض هى أساس المفعول فى الدولة، والفاعل هو الأهم. وعلى سبيل المثال، هناك سيادة ما ليس لها مفعول على الإطلاق، إلا أنها الأكثر احترامًا فى العالم، وأنا أشير هنا إلى سلطة البابا.

تعد نظرية العقلانية هى النظرية المقبولة حاليًا فى العلوم السياسية، والتى تكفى لتبرير تأسيس دولة ما، ولا يمكن دحضها تاريخيًا كما هو الحال مع نظرية العقد. وبما أنى أهتم فقط بتأسيس الدولة اليهودية، لذا أعمل فى حدود نظرية العقلانية. ولكن عندما أتناول الأساس القانونى للدولة، فإنى بذلك أتعدى هذه الحدود. فنظريات المؤسسة الدينية، أو القوى العليا، أو العقد، أو النظرية الأبوية (البطريركية) أو الكنسية، كلها لا تتوافق والرؤى الحديثة. ومن ثم، فإن البحث عن الأساس القانونى للدولة يكون إما فى الرجال (مثل النظرية الأبوية ونظرية القوى العليا ونظرية العقد) أو من فوقهم (مثل نظرية المؤسسة الدينية) أو من تحتهم (مثل النظرية الكنسية: الراعى والرعية). وتترك نظرية العقلانية هذا السؤال دون إجابة، ولكن المسألة التى شغلت أساتذة علم القانون فى كل وقت لا يمكن أن تكون أمرًا تافهًا. حقيقة الأمر هى أن الدولة تتأسس من خليط من الأمور البشرية وما فوق البشرية، وبعض الأسس القانونية لا غنى عنها فى شرح العلاقة الإجبارية التى يخضع بها الشعب للحكومة. أعتقد أن الدولة يجب أن تقوم على مبدأ حماية المصالح، حيث يمثل المواطنون المالك، بينما تمثل الحكومة الوكيل.

قدم الرومان بحسهم العالى للعدالة هذه التحفة الرائعة؛ حماية مصالح الغير «negotiorum gestio»، فإذا تعرضت ملكية شخص مظلوم للخطر، فإنه يجوز لأى شخص آخر أن يتدخل لينقذها، وفى هذه الحالة يكون هذا الشخص الآخر هو الـ «gestor»، أى الوكيل؛ الشخص المتصرف فى شئون لا تخصه، وبدون تفويض شخصى من صاحبها، إلا أن هناك التزامات أسمى فوضته فى هذا العمل. بالنسبة للدولة، يمكن أن تصاغ هذه الالتزامات فى عدة طرق لتستجيب لمختلف درجات الثقافة الشخصية التى تحظى بها القوة المتنامية للوعى العام. من المفترض أن يعمل الوكيل لمصلحة المالك ـ الشعب الذى ينتمى إليه الوكيل نفسه.

يقوم الوكيل بإدارة الملكية التى يعتبر هو مالكًا مشتركًا لها، مما يرشده إلى ضرورة تدخله حين يلزم الأمر، والتى تستلزم قيادته فى السلم والحرب، ولا تكون سلطته تحت أى ظرف من الظروف شرعية بوصفه مالكًا مشتركًا؛ حيث إن موافقة عدد من الملاك المشتركين يعتبر أمرًا حدسيًا حتى فى أفضل الظروف.

تتأسس الدولة بكفاح الأمة نحو تأكيد وجودها، وفى كفاح كهذا، يستحيل الحصول على سلطة مناسبة بشكل عارض مقدم سلفًا. ففى الواقع أن أية محاولة سابقة للحصول على قرار نظامى من الأغلبية قد تؤدى إلى تدمير المشروع برمته منذ البداية؛ حيث إن الخطط الداخلية ستجعل الشعب أعزل أمام الأخطار الخارجية، وبما أننا لا يمكننا أن نفكر جميعًا بالطريقة نفسها، لذا سيتخذ الوكيل دور القيادة ويسير فى الطليعة.

وعمل وكيل الدولة أمر مُبرر عند تعرض القضية العامة للخطر، بينما المالك لا يملك مساعدة نفسه؛ سواء عن رغبة نابعة منه أو كان مضطرًا إلى ذلك لأى سبب.

ولكن بتدخله، يصير الوكيل مماثلاً للمالك وملتزمًا تمامًا بالعقد، وتكون هذه هى العلاقة القانونية القائمة إبان ـ أو مع ـ قيام الدولة.

وهكذا يصبح الوكيل مسئولاً عن أى شكل من أشكال التقصير، وحتى عن فشل المشروعات التجارية وإهمال الأمور التى تتصل بها اتصالاً وثيقًا... إلخ. ولن أطيل أكثر من ذلك فى موضوع حماية المصالح، بل سأتركه للدولة وإلا سيأخذنا بعيدًا عن الموضوع الرئيسى. تبقى ملحوظة واحدة وهى «إذا تم اعتماد إدارة العمل من قبل المالك، فإنها تعتبر فعلية كما لو كانت قد قامت بموجب سلطته».

كيف يؤثر كل هذا على قضيتنا؟

فى الوقت الحالى، يمنع الشتات الشعب اليهودى من إدارة شئونه السياسية بنفسه؛ فضلاً عن أنه ـ بشكل أو بآخر ـ يعيشن حالة من المعاناة فى كثير من دول العالم. لذلك فهو فى المقام الأول يحتاج إلى وكيل، والذى بالطبع لا يمكن أن يكون فردًا واحدًا؛ لأنه قد يضع نفسه فى موقف سخيف أو وضيع عندما يبدو وكأنه يعمل لمصالحه الشخصية.

لذا يجب أن يكون وكيل اليهود هيئة مشتركة، وهى جمعية اليهود.

وكيل اليهود

سوف يتم تأسيس هذا العضو من أعضاء الحركة القومية ـ والذى نتعامل مع طبيعته ووظائفه فى النهاية ـ قبل أى شىء آخر، وسيكون تشكيله بسيطًا للغاية وسيتبلور بين أوساط اليهود النشطاء الذين أطلعتهم على خطتى فى لندن(*).

سيكون للجمعية مهام علمية وسياسية؛ حيث إن تأسيس الدولة اليهودية يستلزم تطبيق الأساليب العلمية؛ فلا نستطيع أن نهاجر من مصر الآن باستخدام الطرق البدائية كما حدث فى الأزمنة القديمة، بل يجب أن نحصل أولاً على بيان دقيق عن عددنا و عدتنا. ولكن ثمة علاقة بين مهمة وكيل اليهود فى العصور الأولى وبين ما نحن عليه الآن، تمامًا مثلما هى العلاقة بين لحن جميل والأوبرا الحديثة. فنحن نعزف اللحن نفسه ولكن باستخدام الكثير من آلات الكمان والفلوت والقيثار والفيولونسيل، مع الأضواء الكهربائية والزينة، والكورال يرتدى سترات أنيقة مع أفضل المغنين.

يهدف هذا الكتيب إلى فتح مناقشة عامة حول القضية اليهودية، حيث سيشترك فيها الأصدقاء والأعداء، لكنها ـ كما أتمنى ـ لن تأخذ شكل السب العنيف أو الدفاع العاطفى، بل جدال سياسى موسع وعملى وجاد.

سوف تقوم جمعية اليهود بجمع كافة تصريحات رجال الدولة والبرلمان والمجتمعات والجمعيات اليهودية، سواء تم إعلانها فى أحاديث أو كتابات أو اجتماعات أو صحف أو كتب.

وبهذا تكتشف الجمعية لأول مرة ما إذا كان اليهود يرغبون حقّا فى الذهاب إلى الأرض الموعودة، وما إذا كان ذلك واجبًا عليهم أم لا. وسيرسل كل مجتمع يهودى فى العالم بإسهاماته للجمعية لعمل إحصائيات شاملة عن اليهود.

أما المهام الأخرى مثل: قيام الخبراء بدراسة الدولة الجديدة ومواردها الطبيعية، والتخطيط الموحد للهجرة والاستيطان، والعمل التمهيدى للتشريع و الإدارة... إلخ، فيجب أن تنشأ بشكل منطقى من الخطة الأصلية.

(*) ألقى دكتور هيرتزل خطابًا أمام اجتماع نادى المكابيين تحت رئاسة إسرائيل زانجويل فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٥م.

وكما سبق أن أوضحت فى الجزء العام، ستحاول الجمعية ـ على المستوى الخارجى ـ الحصول على الاعتراف بها كقوة مكونة للدولة، وستضيف إليها الموافقة الحرة لكثير من اليهود السلطة اللازمة فى علاقاتها مع الحكومات.

أما على المستوى الداخلى، أى بالنسبة لعلاقاتها بالشعب اليهودى، ستقوم الجمعية بإنشاء المؤسسات التى لا غنى عنها، والتى ستكون النواة التى ستخرج منها المؤسسات العامة للدولة اليهودية.

هدفنا الأول ـ كما قلت قبل ذلك ـ هو بسط السيادة التى يضمنها لنا القانون الدولى على جزء من العالم يكفى لإرضاء مطالبنا العادلة.

ما هى الخطوة التالية؟

احتلال الأرض

بينما كانت الأمم تتجول فى العصور التاريخية، كانوا يتركون أنفسهم للصدفة تحملهم وتدفعهم هنا وهناك، ومثل أسراب الجراد، كانوا يستقرون فى أى مكان دون تفرقة، لأن الأرض لم تكن معروفة للإنسان آنذاك. ولكن الهجرة الحديثة لليهود يجب أن تتم طبقًا للأسس العلمية.

منذ أقل من أربعين عامًا كانت عملية استخراج الذهب تتم بطريقة غاية فى البدائية. يا لها من أيام كانت محفوفة بالمغامرة فى كاليفورنيا! خبر واحد استطاع جمع اليائسين من كل أركان المعمورة؛ سرقوا أجزاء من الأرض، ونهبوا الذهب من بعضهم البعض، وأخيرًا تقامروا عليه كما يفعل اللصوص.

ماذا عن اليوم؟ كيف يتم استخراج الذهب فى ترانسڤال اليوم؟ لم يعد هناك متشردون مغامرون، بل چيولوچيون ومهندسون محترمون يقومون بتنظيم صناعة الذهب وتشغيل آلات عبقرية لفصل المادة الخام عن الصخور المحيطة بها. أى أن ما يترك للصدفة الآن هو القدر اليسير.

ولذا، يجب علينا أن نبحث عن الدولة اليهودية الجديدة، وأن نمتلكها بكافة السبل الحديثة الممكنة.

بعد أن نضمن الأرض، سنرسل إليها على الفور بسفينة تحمل على متنها ممثلى الجمعية، والشركة، والمجموعات المحلية، والتى ستمتلك الأرض على الفور.

وسيوكل إلى هؤلاء الرجال ثلاث مهام هى:

١ـ القيام ببحث علمى دقيق عن كافة الموارد الطبيعية للدولة.

٢ـ تنظيم إدارة مركزية صارمة.

٣ـ تقسيم الأرض.

وهذه المهام تتشابك مع بعضها البعض، وسيتم تنفيذها بما يتفق مع الرؤية التى أضحت واضحة فى الوقت الحالى.

ويتبقى شىء واحد يحتاج إلى إيضاح، ألا وهو كيف سيتم تنفيذ احتلال الأرض وفقًا للمجموعات المحلية؟

ففى الولايات المتحدة، يتم تنفيذ احتلال الإقليم المفتتح جديدًا بأسلوب ساذج؛ يتجمع المستعمرون على حدود هذا الإقليم، وفى وقت محدد يقومون بالتدافع بعنف نحو الأراضى التى يودون استعمارها ويحصل كل منهم على ما يستطيع الحصول عليه.

ونحن لن نتبع هذه الطريقة فى تملك أرض اليهود الجديدة. ستباع قطع الأرض فى المقاطعات والمدن فى مزاد، على أن يكون سداد قيمتها بالعمل لا بالمال. وسيتم تسوية الخطة العامة على الشوارع، والكبارى، ومحطات المياه.. إلخ، والضرورية لسير المرور. وسيتم توحيد هذه المدن فى مقاطعات، على أن يتم بيع مواقع المدن داخل هذه المقاطعات من خلال مزاد. وستأخذ المجموعات المحلية على عاتقها تنفيذ هذا العمل، كما ستقوم بتغطية التكاليف من خلال تقييم تجريه، وستتمتع الجمعية بسلطة تحديد ما إذا كانت المجموعات المحلية تغامر بتضحيات كبيرة لا قِبل لها بها. وستتسلم الجاليات الكبيرة مواقع كبيرة لتمارس نشاطها فيها. وستكافئ التضحيات الكبيرة بإنشاء الجامعات، والمدارس الفنية، والأكاديميات، ومعاهد البحوث، إلخ، وسيتم توزيع هذه المعاهد الحكومية، حيث لا يجب أن تقتصر على العاصمة، بل على جميع أجزاء الدولة.

وستضمن المصلحة الشخصية للمشترين، والتقييم المحلى إذا لزم الأمر، ستضمن العمل الملائم لما تم تنفيذه. وبالطريقة نفسها، طالما نحن لا نستطيع ـ ولا نرغب فى ـ أن نزيل الفوارق بين الأفراد، ستظل الفوارق بين المجموعات المحلية موجودة. وستتشكل كافة الأشياء على نحو طبيعى. كما سيتم حفظ كافة الحقوق المكتسبة، كما سيخصص مبلغًا كافيًا لكل تطوير جديد.

وسيحاط شعبنا بأكمله علمًا بهذه الأمور.

فلن نركن إلى استغلال جهل الآخرين، ولا تضليلهم، ولا خداعهم.

إذ يجب الإعداد لكل شىء بطريقة منظمة على نحو مسبق. أنا فقط أشير إلى هذا المخطط: سيشترك أحرص مفكرينا فى شرح ذلك. وفى هذا المشروع، يجب توظيف كل عمل فنى واجتماعى فى عصرنا وفى العصر اللاحق الذى سيتم الوصول إليه قبل الانتهاء من التنفيذ البطىء لخطتى، حيث يجب استغلال كل اختراع ذى قيمة قدّر له الوجود فى هذه الفترة أو فى المستقبل. وبهذه الطريقة، يمكن احتلال الدولة وتأسيس الدولة بطريقة غير مسبوقة فى التاريخ، وتمتلك مقومات نجاح غير مسبوقة.

الدستور

أحد أهم المهام التى سيتوجب على الجمعية القيام بها هى تحديد مجلس علماء الخبراء القانونيين، الذى سيقوم بصياغة أفضل ما يمكن من الدساتير الحديثة. وأنا أرى أن الدستور الجيد يجب أن يتسم بالمرونة، ولقد شرحت تفصيلاً فى عمل آخر أشكال الحكومة التى أرى أنها الأفضل، وأعتقد أن الملكية الديمقراطية والجمهورية الأرستقراطية هما أفضل أشكال الدولة، حيث يتعارض فيهما شكل الدولة ومبدأ الحكومة مما يحفظ توازن القوى. وأنا من أشد المؤيدين للمؤسسات الملكية؛ لأنها تسمح بالسياسة المتواصلة، وتمثل مصالح عائلة مشهورة تاريخيًا ولدت وتعلمت لتحكم، ورغباتها محكومة، بالحفاظ على الدولة. إلا أن تاريخنا المضطرب قد حال بيننا وبين مواصلة الأشكال الدستورية القديمة على نحو مباشر دون أن نبدو سخفاء.

إن الديمقراطية بدون توازن مفيد للسلطة تعتبر إفراطًا فى التقدير والإدانة، وتجعل مناقشات البرلمان لا قيمة لها، ومن ثم تنشأ طبقة معترضة وهم الساسة المحترفون. كما

أن الأمم غير مؤهلة فى الوقت الراهن للديمقراطية المطلقة، وسوف تكون أقل استعداداً لها فى المستقبل، حيث تفترض الديمقراطية الحقيقية سيادة للعادات البسيطة، بينما تزداد عاداتنا تعقيداً يومًا بعد الآخر مع النمو التجارى والثقافى. قال الحكيم مونتسكيو: «بقاء الديمقراطية هو الفضيلة». وأين نجد هذه الفضيلة؟ أعنى الفضيلة السياسية؟ وأنا لا أثق فى فضيلتنا السياسية، أولاً: لأننا لسنا أفضل من بقية الإنسانية الحديثة؛ ثانيًا: لأن الحرية ستجعلنا نظهر صفاتنا القتالية فى المقام الأول. كما أنى أؤمن بأن حل القضايا عن طريق الاستفتاء هو إجراء غير مرض؛ لأنه لا توجد مسائل سياسية بسيطة يمكن الإجابة عليها بنعم أو لا. فالجماهير ـ أكثر من البرلمانات ـ عرضة لأن تقودها الآراء غير التقليدية، وأن تتمايل مع الحديث الحماسى. فمن المستحيل صياغة سياسة داخلية أو خارجية رشيدة فى تجمع شعبى.

يجب أن تتشكل السياسة فى الطبقة العليا ثم يتم العمل بها بشكل تنازلى، ولكن لن يتم اضطهاد أى عضو فى الدولة اليهودية، وسيتمكن كل شخص ـ بل وسيتمنى ـ أن يرتفع فيها. وهكذا تسرى بين شعبنا نزعة تقدمية؛ حيث يحاول كل فرد أن يرتقى بنفسه، ومن ثم سوف يرفع معه جميع المواطنين. وهكذا يتخذ التقدم شكلاً طبيعيًا مفيداً لكل من الدولة والفكرة القومية.

لهذا أنا أميل إلى الجمهورية الأرستقراطية التى سوف تشبع روح الطموح الموجودة فى شعبنا، والتى انحدرت لتصبح مجرد غرور تافه. تمر بخاطرى الآن العديد من المؤسسات فى ڤينسيا، ولكن يجب أن نتفادى بحذر تلك المؤسسات التى أدت إلى تدميرها. سوف نتعلم من الأخطاء التاريخية للآخرين، تمامًا كما نتعلم من أخطائنا لأننا أمة متحضرة، ونسعى كى نكون أكثر بلدان العالم حداثة. ولسوف يتقبل شعبنا الذى سيتسلم الدولة الجديدة من الجمعية، الدستور الجديد بامتنان، وسوف لن تسمح الجمعية بتعطل ممارسة أى من وظائفها من قِبل أفراد حمقى أو عدائيين.

اللغــة

ربما يقترح أحدهم أن حاجتنا إلى لغة مشتركة قد تكون أحد ما سنواجه من صعاب، فنحن لا نستطيع أن نحدث بعضنا البعض باللغة العبرية، فمن منا له معرفة كافية بهذه اللغة تمكنه من استخدامها فى طلب تذاكر السكك الحديدية؟ هذا أمر يتعذر القيام به.

إلا أنها صعوبة يسهل التغلب عليها، حيث يمكن لكل شخص أن يحتفظ باللغة التى يتحدث بها فى وطنه. تمثل سويسرا أفضل الأمثلة على إمكانية اتحاد اللغات. سنظل فى الدولة الجديدة على ما نحن عليه هنا، ولن نأسى بذكرياتنا عن أوطاننا التى أخرجنا منها.

ولكننا سنتوقف عن استخدام المفردات الوضيعة الخاصة بالأقليات اليهودية التى ما زلنا نستعملها؛ لأنها كانت اللغات السرية للمساجين. وسيولى المدرسون القوميون اهتمامًا كبيرًا لهذا الأمر، وسوف يتم اختيار اللغة التى تثبت أنها أفضل وسيلة للتواصل العام لأن تكون اللغة القومية، دون إجبار أحد عليها. يعد مجتمعنا من ناحية العرق مجتمعًا فريدًا ومتميزًا حيث لا يربطنا ببعضنا البعض سوى إيمان آبائنا.

الحكومة الدينية

هل سينتهى بنا المطاف إلى حكومة دينية؟ فى الواقع لا. فبينما يوحدنا الإيمان، تمنحنا المعرفة الحرية. لذلك سوف نحول دون محاولة أى نزعات دينية من قبل الكهنة إلى احتلال المقدمة. وسنبقى الكهنة داخل حدود معابدهم تمامًا كما سنبقى الجيش داخل حدود الثكنات العسكرية، وسيتلقى رجال الجيش والكهنة قدر الاحترام الذى تستحقه وظائفهم، إلا أنهم لن يتدخلوا فى إدارة الدولة، وهو امتياز أعلى منهم، وإلا ستواجههم الصعاب من الداخل والخارج.

وسيتمتع كل شخص بالحرية فى إيمانه أو كفره كما هو حر فى جنسيته، وإذا حدث أن جاء أناس ذوو عقائد أخرى وجنسيات مختلفة ليعيشوا بيننا، فإننا سنكفل لهم الحماية الواجبة والمساواة أمام القانون، لأننا تعلمنا التسامح فى أوروبا. أنا لم أقل هذا تهكمًا لأن معاداة السامية الحالية يمكن إرجاعها فى أماكن قليلة جدًا إلى تعصب دينى قديم. فهى إلى حد كبير شعور ينشأ بين الأمم المتحضرة تحاول كل منها من خلاله أن تطرد أشباح ماضيها.

القوانين

عندما تبدأ فكرة الدولة فى أن تدخل طور التحقيق، ستقوم الجمعية اليهودية بتعيين هيئة من الخبراء القانونيين للقيام بأعمال التشريع التمهيدية. وأثناء الفترة الانتقالية،

يجب أن تراعى تلك الهيئة معاملة كل مهاجر يهودى طبقًا لقوانين البلد الآتى منها. ومع ذلك، يجب عليهم محاولة استحداث توحيد لهذه القوانين المختلفة لتشكيل نظام حديث من التشريع قائم على أفضل أجزاء النظم السابقة. ربما يكون هذا تقنينًا نموذجيًا يجسد كل المطالب الاجتماعية العادلة للوقت الحاضر.

الجيش

تعتبر الدولة اليهودية دولة محايدة، لذا فإنها تحتاج فقط إلى جيش محترف، يكون بالطبع مجهزًا بكل معدات الحرب الحديثة لحفظ النظام داخليًا وخارجيًا.

العَـلَم

ليس لدينا علم، لذا فإننا فى حاجة إليه؛ إذا أردنا أن نقود جماعة من الناس فيجب أن نرفع رمزًا فوق رءوسهم.

أقترح أن يكون العلم أبيض به سبعة نجوم ذهبية اللون. ترمز المنطقة البيضاء إلى حياتنا الجديدة النقية؛ بينما ترمز النجوم إلى الساعات الذهبية السبع التى يتكون منها يوم عملنا؛ لأننا سوف نسير إلى الأرض الموعودة حاملين شارة الشرف.

معاهدات المعاملة بالمثل وتسليم المجرمين

يجب أن تتأسس الدولة اليهودية الجديدة على أساس صحيح، أخذًا فى الاعتبار مكانتنا المستقبلية المرموقة فى العالم. لذا يجب الوفاء بكل الالتزامات المطلوبة فى البلد القديم قبل تركه وبمنتهى الدقة. ستؤمن جمعية اليهود والشركة اليهودية نقلاً رخيصًا وبعض الامتيازات الخاصة بالاستيطان لمن يقدم شهادة رسمية من السلطات المحلية تشهد بأنه ترك شئونه بشكل مشرف.

وأية دعوى خاصة وعادلة تنشأ فى البلدان التى رُحل عنها، ستُنظر فى الدولة اليهودية أسرع من أى مكان آخر. فلن ننتظر المعاملة بالمثل؛ لأننا سنتصرف تمامًا من أجل المحافظة على احترامنا. وهكذا، ربما نجد فيما بعد، أن المحاكم تصبح أكثر استعدادًا للنظر فى دعاوانا مما يبدو الوضع عليه الآن فى بعض الأماكن.

وبالطبع قد تسفر الملاحظات السابقة عن استنتاج أننا سوف نعمد إلى تسليم المجرمين اليهود أسرع مما ستفعله أى دولة أخرى، حتى يحين الوقت الذى نستطيع فيه تطبيق قانون العقوبات الخاص بنا على الأسس نفسها التى تطبقها أى دولة متحضرة. ومن ثم ستكون هناك فترة انتقالية سنتسلم خلالها مجرمينا الذين أمضوا عقوباتهم المستحقة. ولكن، بعد القيام بالتعديلات، سيتم تسلمهم دون أية قيود، حيث سيدخل سجناؤنا الحياة الجديدة كذلك.

وهكذا، قد تمثل الهجرة لكثير من اليهود أزمة لها عاقبة سعيدة. فسيتم إزالة الظروف الخارجية السيئة التى دمرت كثيراً من الناس، وقد يعنى هذا التغيير خلاصًا لكثير من الضائعين.

أود هنا أن أسرد بإيجاز قصة صادفتها فى رواية لمناجم الذهب فى منطقة «ويتواتر سراند- Witwatersrand». ذات يوم جاء رجل إلى «راند» و استقر بها، وجرب أن يعمل فى كل شىء إلا مناجم الذهب، حتى أنشأ مصنعًا للثلج سار بشكل جيد. وسرعان ما حاز على تقدير عالمى بسبب احترامه، لكن بعد سنوات تم إلقاء القبض عليه على نحو مفاجئ. كان قد قام ببعض عمليات الاختلاس عندما كان مصرفيّا فى فرانكفورت وهرب منها و بدأ حياة جديدة تحت اسم مستعار. ولكنه عندما سيق كسجين، تجمع أكثر الناس احترامًا عند المحطة وودعوه وقائلين: إلى اللقاء! لأنهم كانوا متأكدين من عودته إليهم.

كم من الحقائق تكشف عنها هذه القصة! أن الحياة الجديدة يمكنها إصلاح حتى المجرمين، ونسبيّا، ما لدينا منهم هو عدد صغير جدّا. تستحق بعض الإحصائيات المهمة بهذا الشأن أن تقرأ، مثل «إجرام اليهود فى ألمانيا» بقلم دكتور پى. ناتان من برلين، والذى تم تكليفه من قبل «جمعية الدفاع ضد المعاداة للسامية» بجمع إحصائيات مبنية على نتائج رسمية. صحيح أن ترويج هذا الكتيب الذى يعج بالأرقام، شأنه فى هذا شأن «الدفاعات الأخرى»، قد تم باستخدام الخطأ القائل بأنه يمكن دحض معاداة السامية عن طريق المناقشات العقلانية. فأغلب الظن أننا مكروهون لمزايانا بقدر ما نحن مكروهون لأخطائنا.

فوائد هجرة اليهود

أتصور أن الحكومات ـ طواعية أو تحت ضغط المعادين للسامية ـ ستولى اهتمامًا خاصًا لهذه الخطة، وربما تستقبلها بتعاطف سيبدونه أيضًا لجمعية اليهود.

يرجع هذا إلى أن الهجرة التى أقترحها لن تخلق أى أزمات اقتصادية، وستعمل خطتى هذه على إجهاض الأزمات التى تطرأ فى كل مكان نتيجة مضايقة اليهود. وسوف تبدأ فترة من الازدهار الكبير فى الدول التى تعتبر الآن معادية للسامية، لأنه كما قلت مرارًا، ستكون هناك هجرة داخلية للمواطنين المسيحيين إلى المناطق التى سيخليها اليهود بنظام وببطء. وسيكون لهذا التحرك أثر مفيد بشكل عام إذا لقينا مساعدة على القيام به بدلاً من المعاناة فى تنفيذه. تلك نظرة محدودة على المرء أن يتحرر منها، القائلة بأن هجرة الكثير من اليهود ستتسبب بالتبعية فى فقر للدول. فهى مختلفة عن الهجرة الناتجة عن الاضطهاد، حيث يتم تدمير الممتلكات بالفعل كما دمرت أثناء الحرب. فالهجرة الطوعية السلمية للمستعمرين مختلفة، يتم تنفيذها مع أخذ الحقوق المكتسبة فى الاعتبار، والالتزام المطلق بالقانون، وتتم فى وضح النهار وتحت أعين السلطات، وسيطرة الرأى العام عليها. سوف تتوقف هجرة طبقة العمال المسيحيين إلى البقاع المختلفة من العالم تمامًا بسبب الحركة اليهودية.

وستستفيد الدول استفادة أخرى من الزيادة الهائلة فى صادراتها، حيث إن المهاجرين اليهود سيعتمدون «هناك» على استيراد الإنتاج الأوروبى، ولفترة طويلة. ستعمل المجموعات المحلية على الحفاظ على التوازن العادل، وسيتم توفير الاحتياجات المعتادة لمدة طويلة فى الأماكن المعتادة لذلك.

وربما كانت الراحة الاجتماعية الناتجة ميزة أخرى، بل وربما كانت واحدة من أعظم الميزات. فسيخف السخط الاجتماعى خلال العشرين عامًا أو أكثر التى ستتم من خلالها هجرة اليهود، ولسوف تنتهى خلال الفترة الانتقالية على أية حال.

وسيعتمد الشكل الذى ستأخذه المسألة الاجتماعية اعتمادًا كليًا على تطوير مواردنا التقنية. فمثلاً، أسفرت قوة البخار عن احتشاد الناس فى المصانع حول الماكينات، وأثر العمال على بعضهم البعض سلبًا بسبب هذا التزاحم. فالمعدل الهائل وغير المنظم

والطائش لإنتاجنا الحالى إنما سببه استمرار الأزمات الحادة التى تدمر الموظفين وأصحاب العمل على حد سواء. فبينما أسفر البخار عن تكدس الناس، فعلى الأرجح أن الكهرباء ستفرقهم مرة أخرى، ولربما أحدثت حالة أكثر ازدهارًا لسوق العمل. على أى حال، سيستمر عمل مخترعينا الفنيين ـ المحسنين إلى الإنسانية بحق ـ بعد بدأ هجرة اليهود، وسوف يكتشفون أشياء رائعة مثل تلك التى شاهدناها من قبل، أو حتى أفضل منها بالفعل.

لم تعد كلمة «مستحيل» موجودة فى قاموس العلم الفنى. فإذا عاد شخص من القرن الماضى إلى الحياة، سيجد الحاضر ملىء بالسحر المبهم. فأينما ظهر المعاصرون باختراعاتهم، تتحول الصحراء إلى خضرة. ومن ثم نبنى فى سنوات دولاً كان بناؤها ليستغرق قرونًا فيما مضى، وتقدم أمريكا أمثلة فى ذلك لا حصر لها. لم تعد المسافة تشكل عائقًا. جمعّت روح عصرنا كنوزًا رائعة فى مخازنها، وتزداد هذه الثروة يومًا بعد يوم. تنشغل مئات الآلاف من العقول فى كل بقعة فى العالم بالتفكير والبحث، وما يكتشفه أحدهم يصبح ملكًا للعالم أجمع بعد دقيقة واحدة. وسنستخدم نحن وننفذ كل محاولة جديدة على الأرض اليهودية؛ وكما سنقدم يوم العمل لمدة سبع ساعات كتجربة لخير الإنسانية، فسوف ننطلق فى فعل كل الأشياء الأخرى بالروح نفسها لجعل الأرض الجديدة أرضًا للتجارب ونموذجًا للدولة.

بعد هجرة اليهود، ستبقى المشروعات التى أنشؤوها فى مكانها، ولن تفشل روح العمل اليهودية أينما لاقت ترحيبًا من الناس، حيث سيسعد الرأسماليون اليهود باستثمار أموالهم فى الأماكن التى يألفون ظروفها المحيطة. وحيث إن الأموال اليهودية خرجت من البلاد بسبب الاضطهاد الحالى، وابتلعتها فى مشروعات أجنبية فى بلاد بعيدة، فإنها ستتدفق إلى البلاد التى خرجت منها مرة ثانية فى ظل هذا الحل السلمى، وستساهم فى تقدم إضافى فى البلدان التى هاجر منها اليهود.

* * *

خاتمة

كم يحتوى هذا الكتيب، الذى أمعنت التفكير فيه وعكفت على مراجعته لفترة طويلة، على أشياء لم يتم شرحها، وعيوب وأفكار سطحية ضارة، وتكرار عديم الفائدة!

إلا أن القارئ المحايد الذى يتمتع بقدر كاف من الفهم ليدرك فحوى كلماتى لن ينفر من هذه العيوب. بل ستثيره ليتعاون معنا بذكائه وطاقته ليحسن من عمل ليس هو مهمة شخص واحد.

هل لم أشرح أشياء واضحة وأغفلت اعتراضات هامة؟

حاولت تناول اعتراضات بعينها، ولكنى أعلم أن الكثير منها سيظهر على مستويات أعلى أو أدنى.

وأولى الاعتراضات هى أن اليهود ليس الشعب الوحيد الذى يعيش حالة من الضيق. وأرد على هذا بأنه يمكننا أن نبدأ بإزالة جزء من هذا البؤس، حتى ولو كنا نبدأ بأنفسنا.

ويمكن القول أيضًا بأنه ينبغى ألا نخلق فروقًا جديدة بين الناس، وألا نقيم حواجز جديدة، بل ويجب أن نزيل القديم منها. إلا أن من يفكر بهذه الطريقة هو شخص كثير الأحلام؛ وستظل فكرة الوطن الأصلى فى ازدهار عندما يذهب رميم عظامه أدراج الرياح دون أثر يمكن تتبعه. فالأخوة العالمية لم تبلغ حتى أن تكون حلمًا جميلاً، فالخصومة عامل أساسى فى مساعى الإنسان.

ولكن ما أن يستقر اليهود فى أرضهم، ربما لن يصبح لهم أعداء. وبالنسبة لأولئك الذين سيتخلفون، فبما أن الرخاء يضعفهم ويوهنهم، فسرعان ما سيختفون تمامًا. أظن أن دومًا سيكون لليهود ما يكفى من الأعداء، شأنهم فى هذا شأن أية أمة. ولكن بمجرد استقرارهم فى وطنهم، لن يتشتتوا فى أنحاء العالم مرة أخرى أبدًا. لن يعود الشتات مرة أخرى إلا إذا انهارت الحضارة فى كل الأرض؛ وهو أمر لا يخشاه إلا الحمقى، فلدى حضارتنا الحالية أسلحة قوية تكفل لها الدفاع عن نفسها.

وسوف تثار اعتراضات لا حصر لها على المستويات الدنيا لأن عدد الوضعاء فى هذا العالم يفوق عدد النبلاء. وقد حاولت إزالة بعض من هذه الانطباعات ضيقة الأفق؛ ويجب على كل من يريد الانضواء تحت علمنا الأبيض ذى النجمات السبع الذهبية أن يساعد فى حملة تنويرية. فلربما يجدر بنا أولاً محاربة الكثير من أعضاء جنسنا ذوى الطبائع الشريرة والرؤية المحدودة.

مرة أخرى، سيقول الناس إنى أزود معادى السامية بالأسلحة. ولم ذلك؟ ألأننى أعترف بالحقيقة؟ أم لأننى لا أعتقد أنه لا يوجد بيننا سوى أناس ممتازين؟

ألن يقول الناس إنى أدل أعداءنا على الطريقة التى يؤذوننا بها؟ أعترض على هذا تمامًا لأن اقتراحى هذا لن يتحقق إلا بالموافقة الحرة لغالبية اليهود. يمكن أن تتخذ إجراء ضد أفراد، أو حتى ضد أقوى الجماعات اليهودية، لكن لن تتخذ الحكومات إجراء ضد اليهود جميعهم، ولا يمكن سحب الحقوق المتساوية لليهود أمام القانون بمجرد الاعتراف بها، لأن أول محاولة لفعل ذلك سوف تدفع اليهود جميعا ـ أغنياء وفقراء على السواء ـ إلى التحول إلى جماعات ثورية. دائما ما تخلق بداية أى إجراءات رسمية ظالمة ضد اليهود أزمات اقتصادية، ولذا ليس بوسعهم استخدام أى سلاح ضدنا بشكل مؤثر، حيث سيجرح هذا السلاح تلك الأيدى التى تبرع فى استخدامه. وفى الوقت ذاته تنمو الكراهية بسرعة، مع أن الأغنياء لا يشعرون مثلما يشعر بها الفقراء. ولنسأل فقراءنا، من الذى تم إخضاعه فى طبقة العمال منذ الإزالة الأخيرة لمعاداة السامية أكثر من أى وقت مضى؟.

وقد يقول بعض الأثرياء إن الضغط ليس شديداً بشكل يبرر الهجرة، وإن الترحيل الجبرى يبرز عدم رغبة شعبنا فى الرحيل. هذه حقيقة، ولكن هذا يرجع إلى أنهم لا

يعرفون إلى أين يذهبون؛ فهم يخرجون من مشكلة ليقعوا فى أخرى. أما نحن فنريهم الطريق إلى الأرض الموعودة، ويجب أن تحارب قوة الحماس الرائعة ضد قوة التعود المفزعة.

هل لم يعد الاضطهاد ضارّا كما كان عليه فى العصور الوسطى؟ هذا صحيح، لكن زادت حساسيتنا حتى أننا لم نعد نشعر بنقص فى معاناتنا؛ أنهك الاضطهاد الطويل أعصابنا.

هل سيقول البعض مجددًا إن مشروعنا لا رجاء وراءه لأننا حتى وإن حصلنا على الأرض وبسطنا سيادتنا عليها، فإن الفقراء فقط هم من سيذهبون معنا؟ من الدقة القول إن الأشخاص الأفقر هم من نحتاج إليهم فى البداية؛ لأن اليأس وحده يصنع فاتحين جيدين.

سيسأل البعض إذا كان الأمر ممكنًا، فلماذا لم يك منذ زمن طويل؟

لم يكن ذلك ممكنًا قط من قبل، أما الآن فإنه ممكن. فمنذ مائة عام ـ أو حتى خمسين عامًا ـ ماضية لم يكن هذا سوى حلم. اليوم قد يصبح الحلم حقيقة. يعرف أغنياؤنا، ممن لديهم معرفة بالإنجازات التقنية، ما يمكن أن يفعله المال. لذا هذا هو ما سيكون: إن الفقراء والبسطاء، الذين لا يعرفون مدى سلطان الإنسان على قوى الطبيعة، هم فقط من لديهم الإيمان الراسخ فى الرسالة الجديدة، فهم لم يفقدوا قط أملهم فى الأرض الموعودة.

ها هى ذى أيها اليهود! ليست خدعة أو خرافة! يمكن لكل شخص أن يختبر حقيقتها بنفسه؛ لأن كل واحد سيحمل معه جزءًا من الأرض الموعودة؛ جزءًا فى رأسه، وآخر فى يده، وثالثًا من ممتلكاته المكتسبة.

والآن يبدو هذا أمرا طويلا لا نهاية له، وحتى فى أفضل الظروف ستنقضى سنوات كثيرة قبل بدء تأسيس الدولة، وفى هذه الأثناء سيعانى الآلاف من اليهود فى أماكن شتى من السب والعار والإهانة والضرب والنهب والموت. لا لن يعانوا من ذلك، فبمجرد البدء فى تنفيذ الخطط ستتوقف معاداة السامية على الفور وإلى الأبد، فهذه نهاية عقد الهدوء.

ستنتشر الأخبار حول تأسيس شركتنا اليهودية فى يوم واحد إلى أبعد نقاط الأرض بسرعة البرق عن طريق خطوط التلغراف.

سيتبع ذلك راحة فورية، وستجد العقول التى أفرزتها طبقاتنا المتوسطة بوفرة ـ من فنيين وموظفين ومدرسين وضباط ومحامين وأطباء ـ مكانًا فى منظماتنا الأولى، وهكذا يستمر التحرك فى تقدم سريع ومنظم.

ستسمع الصلوات والابتهالات فى المعابد والكنائس لنجاح عملنا؛ حيث سيجلب راحة من عبء قديم عانى منه الجميع.

إلا أنه يجب علينا أولاً أن ننير عقول الرجال، كما يجب أن تصل الفكرة إلى أبعد وأفقر الأماكن حيث يعيش شعبنا. سنوقظهم من سباتهم العميق لأن حياتهم أصبح لها الآن معنى جديدًا. يحتاج كل شخص لأن يفكر فى نفسه فقط، بينما ستجمع الحركة أعدادًا كبيرة.

يا له من مجد ينتظر هؤلاء الذين يدافعون عن القضية دون أنانية!

لذلك أعتقد أن أجيالا عظيمة من اليهود سوف تخرج للوجود. سيعود المكابيون للحياة مرة أخرى.

دعنى أكرر كلماتى الافتتاحية مرة أخرى: اليهود الذين يتمنون قيام دولة سوف يحصلون عليها.

أخيرا سنعيش أحرارًا على أرضنا ونموت بسلام فى وطننا.

سيتحرر العالم بحريتنا و سيغتنى بثروتنا ويكبر معنا.

وكل محاولة نجريها هناك لتحقيق رخائنا، سوف تنعكس بقوة وفائدة لصالح الإنسانية.

* * *